اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام | ح١ | الآيات [١ : ٧]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛ محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

إن شاء الله نستفتح سورة الأنعام. والإنسان حقيقةً يتهيب أن يستفتح هذه السورة العظيمة.

سورة الأنعام سورة طويلة من السبع الطوال جاءت بعد سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وهي أول سورة مكية في ترتيب سور المصحف. وهناك آثار كثيرة رويت -بعضها مرفوع للنبي صلى الله عليه وسلم، وبعضها موقوف- بأنها نزلت جملةً واحدة نزل بها سبعين ألف ملك يشيعونها، وهناك بعض الآثار على أنها نزلت ليلًا. وهذا من مباحث علوم القرآن والتي نعرف منها السور التي نزلت في مكة والتي نزلت في المدينة، والآيات التي نزلت نهارًا أو ليلًا، والتي نزلت متفرقة والتي نزلت جملة واحدة. وليس هناك سند صحيح -قطعًا متصل- بخصوص نزولها جملة واحدة؛ لكن مجموع الآثار بعض العلماء حسَّنَه من مجموع الطرق. وبالتالي بعض العلماء أجاز أن تقول: أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة. لكثرة الآثار والطرق الواردة وإن كان أغلبها ضعيف. وبعض العلماء قال كل الآثار ضعيفة ولكن مجموع الطرق قابل لتحسين الأثر.

الشاهد؛ إن هذه السورة العظيمة هي أول سورة مكية تقابلنا في المصحف، ونزلت ليلًا، ونزلت جملة واحدة.

ثانيًا: من اختصاص سورة الأنعام أنها من السور التي افتتحت بـ (الحمد لله).

ما هي السور التي افتتحت بـ (الحمد لله) بترتيب المصحف؟

الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر.

الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١)﴾

الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(١)﴾

الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا(١)﴾

سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(١)﴾

فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١)﴾.

وعندما ننظر في صفات الحمد الموجودة؛ بداية "الحمد لله"

الألف واللام للاستغراق؛ والاستغراق يقصد به أن كل الثناء والحب وجميع المشاعر التي بداخلك لا تكون إلا خاصة لله. ونجد أن الحمد يختلف عن الشكر. وحاول اللغويين تفسير لفظ الحمد وقالوا أن به معنى الشكر، و معنى الثناء، ومعنى الحب، ومعنى التعظيم. الشكر والثناء والحب والتعظيم؛ كل هذا متحدًا يقال عنه" الحمد".

الفرق بين الحمد والمدح

أما بخصوص الحروف التي تتكون منها كلمة "الحمد"، في اللغة؛ الكلمة الواحدة عندما تعكس حروفها قد تصل بنا إلى أصل متقارب-، فكلمة "مدح": م د ح، وكلمة "حمد": ح م د، **والمدح هو مجرد الثناء**. فعندما تريد أن تمدح أحد ويخالط هذا الثناء مشاعر مثل التعظيم والحب والامتنان وتريد أن تشكره من أعماق قلبك هنا يسمى هذا بـ"الحمد". وهذه المشاعر التي بداخلنا استغراقًا وكليةً لا تكون إلا لله عز وجل. مثلًا نعمة الكُلية إن كليتك صحيحة ولا تحتاج إلى غسيل كلية، وإنك سليم، أو إنك مبصر، فعندما تستحضر هذه النعم وتشعر بانكسار وشكر لله عز وجل على هذه النعم وقتها تتنهد قائلا : "الحمد لله"، فهذه "التنهيدة" أخرجت مشاعر وهذه المشاعر هي معاني الحمد وأن تكون عاجز عن الشكر(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) [النحل:١٨]

بداخلك مشاعر ثناء تريد أن تتفرغ فقط لكي تثني على الله عز وجل. وعندما تستشعر كرم الله عز وجل ورحمته وقتها تريد فقط أن تثني على الله. هناك من يثني على بعض الناس لأنه خائف أو يريد مالًا أو يريد منصب أو رياءً ونفاقًا، لكن، لا؛ أنت تثني على الله عز وجل إجلالًا له ورهبةً منه وطمعًا في ثوابه وحبًا له، وهذه منظومة من المشاعر لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى.

إن كانت هذه هي المشاعر التي بداخلنا لله سبحانه وتعالى، فلماذا افتتح الله عز وجل خمس سور بالحمد لله؟

أكرمنا الله سبحانه وتعالى بخمس معاني في القرآن الكريم، عندما تتذكر هذه المعاني تريد أن تقول "الحمد لله".

وقفة مع السور التي افتتحت ب "الحمد"

أولًا: (الحمد لله رب العالمين) [الفاتحة:١]

ماذا يوجد في كلمة (رب العالمين) يستوجب الحمد؟ الله سبحانه وتعالى (رب العالمين) الله عز وجل خلق العالم لكن من رحمته أنه خلقه ولم يتركه، بل خلقه وكان ربًا له. ماذا يعني أن الله ربًا له؟ شيء يربو أي يزيد...من سُنة الله عز وجل في الكون أن الله خلق الكون كله ينمو، السماوات تتسع، النبتة تنمو، الإنسان ينمو، الذرة تتحرك، لا شيء ثابت؛ الكل ينمو، الكل يمر بمراحل عمرية معينة حتى السماوات والأرض (كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) كما في سورة الأنبياء [اية:٣٠] ، (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) كما في سورة الذاريات [اية:٤٧] ، (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ) كما في سورة الأنبياء[اية:١٠٤]

إذًا الكون كله في ظاهرة النمو والتمدد، كل الكون حتى النملة والميكروب والذبابة والإنسان وقلب الإنسان ويده، والحشرات والسماء والأرض الكل ينمو وله مراحل عمرية تمر مع الزمان، كل مخلوقات الكون تحتاج إلى الله في كل لحظة من لحظات النمو، وإذا تركها الله عز وجل فلن تنمو ولن تربو، لذلك هو سبحانه (رب العالمين) العالم كله يحتاج إلى الله أثناء حياته وأثناء نموه، ونحن نحمد الله على أن العالمين لهم رب. صفة الرب لله عز وجل هي أول وصف لله تحمد به الله عز وجل؛ صفة الربوبية هي أول وصف ذُكر عند نزول القرآن (اقرأ باسم ربك) [العلق:١]

ثاني صفة من صفات الله ذُكرت "الذي خلق" ثاني حمد ذكر في القرآن(الحمد لله الذي خلق)[الأنعام:١] أول صفة يحمد الله عليها صفة الربوبية، ثانيًا: صفة الخلق (اقرأ باسم ربك الذي خلق) [العلق:١]. (الحمد لله رب العالمين) [الفاتحة:١] ، (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض) [الأنعام:١]

الربوبية والخلق صفتان متلازمتان. فالذي خلق هو الرب والرب لا بد أن يَخلُق.

وبالتالي عندما تجد شخص يدعي الربوبية قل له: ما دليلك؟ إذا كنت تريد أن تكون ربا إذًا أخلق شيئًا، أخلق ذباب، أخلق من عدم! الرب يَخلُق، والذي يَخلُق قطعًا هو الرب (ألا له الخلق والأمر) [الأعراف:٥٤] الخالق سبحانه وتعالى.

مثلًا شخص صنع شيء ما وخرب، فأنت تذهب له لكي يصلحه فيقول لك لا أعلم كيف أصلحه! فتقول له: كيف وأنت الذي صنعته؟! فالذي خلق يربُ خلقه، فهو الذي يرعاهم، الذي خلق هو الرب؛ فهناك تلازم بين الصفتين.

ثالث آية في الحمد (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا) [الكهف:١]

الله عز وجل هو رب العالمين، ولأنه رب للعالمين فهو الذي خلقهم، ومن رحمة الله عز وجل أنه خلقهم ولم يتركهم سدى فأنزل لهم الكتب (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ). (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ () خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ () اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ () الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) [العلق:١-٤]

علم: نَزَّل لك وحي (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب). الله عز وجل رب العالمين، الله عز وجل خلق السماوات والأرض، الله عز وجل هو الذي أنزل على عبده الكتاب، الله سبحانه وتعالى لما خلق الخلق لم يتركهم بدون " نور"، ولذلك في أول سورة الأنعام (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور) [الأنعام:١]

فهناك "ظلمات" وهناك "نور" -وسنتكلم عن هذا في موضعه إن شاء الله-.

الآية الرابعة من آيات الحمد؛ بداية سورة سبأ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)[سبأ:١]

(الحمد لله الذي له) له: تفيد الملكية.

إذًا الله عز وجل هو الرب، الرب هو الذي خلق، ومن صفات الربوبية أن الله عز وجل لم يتركنا هملا فأنزل لنا وحي. كل هذه أمور تستلزم أن تحمد الله عز وجل عليها، فحين تتذكرها تقول: الحمد لله أن

الله عز وجل لم يتركنا فهو رب العالمين، الحمد لله أن الله عز وجل خلق –وهي صفة لا تكون إلا لله عز وجل–، الحمد لله أن الله أنزل إلينا وحيًا، الحمد لله أن الله هو المالك الوحيد للكون.

في أذكار الصباح، ماذا تقول؟ "أصبحنا وأصبح الملك لله"، ثم تقول "والحمد لله". هذه حقيقةً نعمة عظيمة! كما قال الله سبحانه في نهاية سورة الإسراء: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ) [الإسراء:١١١] .

الحمد لله عز وجل أنه لا يتدخل أحد في تدبير الكون؛ لأنه لو كان هناك من يتدخل لهلكنا، ولأصبحنا كالذي فيه شركاء متشاكسون، فأنت تريد أن تُرضي هذا وتُرضي ذاك. (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء:٢٢]، فالدنيا كلها ستفسد، وأنت ستفسد، ستضيع، ستعيش تعيسا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تَعِس عبدُ الدينار، تَعِس عبدُ الدرهم"[١]. ستعيش تعيسًا، لماذا؟ لأنه أصبح هناك أكثر من إله في حياتك.

خامس شيء نحمد الله عليه: نعمة الفَطْر، (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [فاطر:١] وهنا قضية الفِطرة: مهما فعل أعداء الله، فإن فطرتك ثابتة لا تتغير.

إذًا نحن لدينا سورتان تبدآن بالحمد فيهما الفطرة والكتاب وهما سورتا فاطر والكهف، ولدينا سورتا حمد فيها الخلق والملك وهما سورتا الأنعام وسبأ، وسورة واحدة تبدأ بالحمد تتعلق بالربوبية.

إذًا من مستلزمات الربوبية: الخلق والأمر. مستلزمات الربوبية أن: خلق، وملك، وفطر، وأنزلَ الكتاب.

[شخص يسأل: هل يمكنك أن تعيد الحمد في سورة سبأ؟

في سورة سبأ: الحمد متعلق بالملك، صفة الملكية، (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ).]

---

[١] - [عن أبي هريرة]: "تعِس عبدُ الدينارِ، تعِس عبدُ الدرهمِ، تعس عبدُ الخميصةِ، تعس عبدُ الخميلةِ، تعِس وانتكَس وإذا شيكَ فلا انتقشَ"
ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، مجموع الفتاوى ٣٥/٢٨ • صحيح • أخرجه البخاري (٢٨٨٧) باختلاف يسير

سورة الأنعام

هي أول سورة مكية نقابلها في القرآن، وهي سورة عظيمة. وهي -لو قلنا بتحقيق الآثار- **نزلت جملة واحدة**. فسورة الأنعام تحتاج إلى أن تؤخذ جملة واحدة. سورة الأنعام يمكن -في يوم عاشوراء القادم مثلًا- أن تأخذها مرة واحدة، وأنت تصلي قيام الليل يمكن أن تأخذ السورة كلها في ركعة، تأخذها جملة واحدة.

سورة الأنعام عبارة عن درس عقيدة مرّكز، يعالج كل مشاكل النفوس في النفع والضر، في البأساء، في النعمة، في الملك، في الإحياء والإماتة، في الشبهات، في الضلال، في الاحتجاج بالقدر. فالسورة تعالج كل تفاصيل العقيدة بطريقة قرآنية وليس بطريقة كلامية.

وهذه نقطة مهمة جدا يجب الإشارة إليها قبل أن نبدأ في تدارس سورة الأنعام. قضية علاج القرآن -أو توصيل القرآن- للعقيدة تختلف عن طرق كلام البشر. وللأسف هناك دائرة متكررة تحدث كالتالي؛ أن تنشأ فرقة ضالة، فيقوم علماء المسلمين بكتابة الكتب للرد عليها، ويضعون ضوابط لم يكونوا في حاجة لوضعها إلا لما نشأت هذه الفرقة الضالة.

إذًا كيف تبدأ هذه الدائرة؟

أن تنشأ فرقة ضالة، فيهب علماء المسلمين للرد على هذه الفرقة الضالة، فيكتبون ويستخلصون آيات من القرآن وأحاديث، ويأتون بالشبهات ويردون عليها، كما أنهم يردون عليها بصورة تناسب فهم الفرقة الضالة. فلو أن الفرقة الضالة فلسفية كلامية، يرد عليها ردًا مناسبًا؛ حتى يفهم. فمثلًا شخص عالِم في الطب، يمكن أن تأتي له بآية في الإعجاز الطبي في القرآن،

فنشأت المذاهب المختلفة في العقيدة الضالة، فيردون عليهم. ثم تصبح هذه الكتب التي كتبت -في الأصل- للرد على هؤلاء: كتب عقيدة وتُدرَّس لعموم المسلمين.

عموم المسلمين لم يكن لديهم -من البداية- هذه المشكلة أو هذه الشبهة... فعموم المسلمين يحتاجون العقيدة الصافية الفطرية البسيطة التي جاءت في كتاب ربنا عز وجل.

تجد مثلا كتب ضخمة في قضية الرد على النصارى وشبهات النصارى -كقولهم أنهم ثلاثة آلهة في إله واحد أواثنين في واحد، و...!!! تعالى الله عما يقولون، تجد القرآن ماذا يقول؟ (وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) [المائدة:٧٥] انتهى، وتفهم أنت منها، فالله -عز وجل- يُطْعِم ولا يُطْعَم، الله -عز وجل- صمد، فقط. فكلمة (كانا يأكلان الطعام) تدلك كيف يطرح القرآن العقيدة بطريقة سهلة بسيطة تناسب الجميع. هل الرب عز وجل يحتاج إلى طعام؟! هل هناك رب يحتاج إلى طعام؟! ما هذا الذي تقولونه؟! ويجوع ويقضي حاجته يدخل الخلاء؟! ما هذا الذي تقولونه!!!

فالطرح القرآني للعقيدة يأتي بطريقة بسيطة. أنت تقول ربنا غير موجود، حسنًا، عندما تكون في وسط البحر والموج يلعب بك ماذا تقول؟ هذه هي طريقة القرآن البسيطة، ليست فقط بسيطة، (ألا يعلم من خلق) [الملك:١٤] نفسك تحتاج ذلك، مهما تفرعن الفرعون، ومهما تكبر المتكبر، ومهما طغى الطاغية، هو داخله مشاعر خوف من المجهول ومن المستقبل، يظل بشرًا، لن يعلو فوق طبقة البشرية، سيظل بشرًا، القرآن يخاطب مشاعر البشرية التي داخله، أنت مشكلتك في كتاب العقيدة أنك تحل له المشكلة العقلية فقط!!!

أمر عجيب جدًّا أن السورة فيها شبهات للمشركين مثل سورة الأنعام، وتقرر عقائد وتدحض مشاكل وتربي وكتاب هدى، وأول شيء تبدأ بإقرار ما تريد أن تقرره... بدأت ب (الحمد لله) ؛ الموضوع منتهي أصلًا! فتخيل سورة وضعت النتيجة في البداية، هذا متوقع أن يأتي في النهاية!، فبما أنه فعل كذا وكذا فهو الذي يستحق الحمد، لا، بدأت من البداية تُخاطبك، تعرف ضعفك البشري، الضغط على النفس البشرية (ألا يعلم من خلق) الله -عز وجل- هو الذي خلق، فهو يعلم حاجة الإنسان، وهذا كلام ربنا سبحانه وتعالى.

فللأسف انشغالنا بالجدل الكلامي وتعليمه للناس إجبارًا على أن هذا الذي يُعلَّم لعموم المسلمين، لا... هذه طائفة معينة هي التي تنتصب للرد على الفرق الضالة، فهي التي تحتاج أن تتعلم مثل هذا الكلام وتتلقى هذا الكلام وتدرسه لترد على الفرق الضالة بالطريقة المناسبة لهم ، هذا مطلوب (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) [التوبة:١٢٢] هذا مطلوب أن تنفر فرقة لهذا، لكن عموم الناس -عموم الناس التي هي نحن- الأصل في الإنسان أنه يتلقى القرآن بطريقة فطرية بسيطة، مثل آيات سورة الأنعام، هذه هي العقيدة الحقيقية.

العقيدة: قيل أن عقيدة بوزن "فعيلة" بمعنى مفعول أي عُقدت، مربوطة، عقيدة أي مربوطة ومعقودة، أين معقودة؟ في قلبك. إذًا العقيدة ما ربط في قلبك من معانٍ لا تتزحزح. مثال: أنا أعتقد أن هذا الذي يرفع صوته عليَّ ويعاتبني هو أبي، مهما يحاولون إقناعي بأنه ليس هو فأنا أعلم أبي، أنا أعلمه جيدًّا، فهذه أصبحت عندك عقيدة. مثال آخر: أنا أعلم أن وقت الجوع عندما آكل شيء سأكون بخير. أو أنا عصبي الآن لأني جائع، أنا أعلم؛ هذه عندي عقيدة. الغيبيات أن تتحول إلى عقيدة، لن تأتي إلا بالقرآن. إذا كان التعامل مع العقيدة في القرآن مثل كتب العقيدة التي هي من وضع البشر كان القرآن ينتهي في ثلاث صفحات، الأولى: الله واحد لا إله إلا هو، الثانية: لا بد أن تعرفوا أن هناك جنة، الثالثة: لا يجوز كذا حتى لا تدخلوا النار، الرابعة... انتهى الموضوع، هذه هي المعاني التي نحتاجها تصل. لكن القرآن ليس كذلك ؛ القرآن يضرب ويطرق على كل مداخل النفوس، يُكَون حصارًا نفسيًّا.

انظر إلى أول ثلاث آيات في سورة الأنعام، (الحمد لله) ماذا فعل الله عز وجل؟ (خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور) وبعد ذلك الكفار ذهبوا يبحثون عن إله آخر، هذا هو الذي خلقك أنت من طين، الخطاب أصبح مباشرًا، وستموت (ثم قضى أجلًا) ثم تبعث (وأجل مسمى عنده) وبعد كل هذا... ألا تزال شاكًّا! هذا هو الله هو المعبود في السماوات وفي الأرض! ويعلم ما بداخلك من أثر لهذا الكلام الذي قلته أنا، ما بداخلك الآن يعلمه الله عز وجل! ويعرف ماذا ستقول أنت (ويعلم ما تكسبون). ثلاث آيات بها إحاطة مكانية: من بداية السماوات والأرض والظلمات والنور، وإحاطة زمانية: خلقك وموتك وبعثك، وإحاطة نفسية ما بداخلك الله يعلمه! انظر؛ هذه ثلاث آيات تحاصرك!

هذا هو دورنا نحن –ولقد قلت هذا الكلام من قبل وأكرره– دورنا هو توصيل معاني القرآن للناس لأنه أصبح هناك عُجمة حدثت بيننا وبين آيات القرآن، أي عندما تقرأ هذه الآيات على شخص ما الآن، يقول لك: أنا لا أفهم، لا أعرف ماذا تريد؟ أين هي المشكلة! أو عندما يسمع شخص ما هذه الآيات ويبكي يسأله أحدهم لماذا تبكي؟!، هل هناك شيء ما يضايقك؟ ماذا حدث؟، لماذا أنت حزين؟ هل هناك ما يُحزن في هذا الكلام؟!، هو لا يعرف... ولذلك لا بد أن نتكلم بلسان قومه ، وما عليك إلا أن تأخذ هذه المعاني– لا تأخذ معاني أخرى– وتوصلها للناس، لا بد أن تأخذ معاني القرآن وتكسر الحواجز التي بينهم وبين النصوص، ولكي نصل إلى هذه المرحلة، مرحلة أن نقرأ على الناس القرآن فيتأثروا.

هذه كانت مقدمة لكيفية طرح القرآن للعقيدة ولماذا يعتبر تناول العقيدة من خلال القرآن أمر مهم، وإعطاء عقيدتنا للناس من خلال كتاب الله أمر مهم.

البداية

نبدأ؛ بسم الله الرحمن الرحيم: (الحمد لله) تحدثنا عن معاني الحمد، وتحدثنا لماذا جاءت في الخمس سور (فأتوا بسورة من مثله) [البقرة:٢٣]

هناك نوعان من التحدي الذي تتحدي بهم أي شخص أن هذا الدين حق:

_الأول: (الذي خلق السماوات والأرض) الرب والخالق (أقرأ باسم ربك الذي خلق) [العلق:١] وهنا (الحمد لله الذي خلق) [الأنعام:١]

الاسم موصول "الذي" يزيد التعريف، عندما تريد أن تعرف مثلًا، أخبرك هل تعرف فلان؟ تقول لي من؟ فأخبرك أنه فلان الذي يرفع صوته! لكنه يقوم بالكثير من الأشياء في حياته، ولكن عندما أخبرك أنه الشخص الذي يرفع صوته أنت تعرف أنه المقصود، لأن هذه الصفة خاصة به، ولذلك أقول لك (الحمد لله الذي خلق) لا يقوم بفعل الخلق إلا هو -سبحانه وتعالى- (خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) [الأنعام:١]

الفرق بين خلق وجعل

توقف العلماء وتكلموا كثيرًا حول الفرق بين "خلق" و"جعل"، (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور) ، قالوا لماذا لم يقل الله عز وجل "خلق الظلمات والنور"؟، وتكلموا كثيرًا في أن (جعل) تفيد معنى الصيرورة أي: شيء يتحول إلى شيء آخر، وأن هذه أشياء تتحول وتتغير مع دوران الأرض، ولو قلنا أن الظلمات والنور المقصود بها هنا الليل والنهار أو أي الظلمة والنور الحسيين وليس المعنويين،وهذه أمور تتغير وتمر بتغيير فتحتاج إلى صيرورة.

وقال بعض العلماء: "جعل" دائما تأتي للأمور التي تكون مُهيئة لحدوث شيء ما، مثلما تقول: أنا جعلتها قابلة لكذا ... سواء قام بعمل هذا التغيير فيها حقيقة أو عمل فيها تغيير معنوي. مثال؛ عندما

يقول ربنا في الآية (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا) [الزخرف:١٩] هم يريدون تحويل الملائكة الذين هم عباد الرحمن إلى ماذا؟، إلى إناث، هو لن يستطيع، وذلك يعني أن جعل لا تعنى أن ذلك لا بد أن يحدث، فكلمة (وجعل الظلمات والنور) الله –عز وجل– هيأ الأسباب في الأرض لوجود الظلمات ووجود النور، مثلما هيأ الإنسان قابلا لأن يسير في طريق الشر أو طريق الخير، كذلك هيأ الأسباب لوجود الظلمات ووجود النور، هيأ الأسباب لوجود الظلمات والنور الحسيين... كيف جعل ذلك؟ قام بخلق الشمس وخلق أرض تدور، خلق أشياء متحركة هذه الحركة ينتج عنها في النهاية نور وظلام، كذلك أيضا هيأ الأسباب لوجود النور والظلام المعنويان، اللذان هما الهدى والضلال، هيأ الأسباب لهذا، كيف هيأ الأسباب لذلك؟ خلق الرسل، وجعل الرسل قابلين لتلقي الوحي، وأنزل الوحي، وخلق إبليس وجعل نفوس ضالة ....

الله –سبحانه وتعالى– قام بكل ذلك، فهيأ الأسباب لوجود الظلمات ووجود النورالحسي والمعنوي.

ولذلك الله –عز وجل– يُعلمك أن هناك ظلمات وهناك نور. "جعل" ماذا؟ "الظلمات" جمع و"النور" مفرد، دائمًا تأتي هكذا في القرآن؛ **لأن الظلمات شعب متعددة**، مثلما سيأتي في آخر السورة بعد الشوط الطويل (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) [الأنعام:١٥٣]، (ولا تتبعوا) ماذا؟ (السبل) أي الظلمات التي ذكرت في أول السورة، والنور واحد، السبيل واحد، الطريق المستقيم واحد، (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم) إذًا في أول الأمر يكون الإنسان في ظلمة ثم يخرج إلى ماذا؟ (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم) من ماذا؟ (من الظلمات إلى النور) [البقرة:٢٥٧]...

بدأ هنا بالظلمات فكل معنًى من معاني الإيمان قبل أن تعرفه كنت في ظلام منه، لهذا أنت يوميًا – ولأكثر من مرة– تطلب الهداية، (اهدنا) [الفاتحة:٦] ولكنك الآن مهدي! لا أنت تريد هداية في كل خطوة في حياتك! أنت تريد هداية في القيام، وهداية في الصيام، وهداية في كل الفروض في المسجد، وهداية في الأخلاق الطيبة، وهداية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهداية في فهم القرآن، وهداية في فهم السنة، وهداية لنشر الدين، أنت تريد هداية في كل شيء! وكل معنًى من تلك المعاني التي ذكرناها طريق، تريد داخل هذا الطريق هداية! أنت تريد أن تصل سالما.

كل خطوة تخطوها في طريق الدين قبلها كنت بالنسبة لها ماذا؟ في ظلام، من الذي نقلك هذه النقلة؟ الله.

لذلك أعلى صور الولاية تتجلى في إنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، (الله ولي الذين آمنوا [البقرة:٢٥٧] ماذا يفعل -سبحانه-؟ لم يقل "الله ولي الذين آمنوا يطعمهم"، انتبه لأن هنا سيأتي (قل أغير الله أتخذ وليًا) [الأنعام:١٤]، فأعلى صور الولاية إخراج الناس من الظلمات إلى النور، إذًا فالله -عز وجل- يتولى الناس بأنه -سبحانه وتعالى- يبين لهم النور، (إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى) [الليل:١٢،١٣] بما أن الله سبحانه قال: (علينا) فقد أوجب -سبحانه- على نفسه أن يبين للناس (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا) [الإسراء:١٥] أعلى صور الولاية أن يتولاك الله في الدين، فالله -عز وجل- لن يترك الناس بدون نور يبين لهم.

(وأما ثمود) ماذا قال الله عنهم (فهديناهم) أولًا، فماذا فعلوا؟ (فاستحبوا العمى على الهدى) [فصلت:١٧]

فالله وضح لهم وأنزل إليهم رسولًا، أي أن الله -عز وجل- يُصَبِّر الدعاة على أذى العصاة لكي يصل النور لهم، الله يمد الدعاة بصبر، فأحيانًا الدعاة يرون أشياءً من أقوامهم لا يستطيعون الصبر عليها تجعلهم يتمنون هلاك أقوامهم! لكن ينزل عليهم صبر ومدد لأجل ماذا؟ لأجل النور أن يصل للناس، لأن الله -عز وجل- أوجب على نفسه ذلك، لا بد أن يصلك الهدى لا محالة، وبعد هذا أنت تستجيب أو تعرض، فحسابك على الله.

(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم..) [الأنعام:١]

ثم: حرف استبعاد، أي وبعد كل هذا، الذين كفروا يعدلون بربهم غيره! ما المقصود بـ"يعدلون" هنا؟ أي يساوون، هذا معني

هناك معنيان لـ"يعدلون":

_ عدل عن الطريق: أي أعرض عنه إلى غيره

_ أو عدل به كذا: أي ساوى به كذا

فالمعنى الأول (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أي يعدلون معه غيره، أي أنهم يريدون أن يجعلوا مع الله -سبحانه وتعالى- آلهة أخرى، أكثر آية تبين ذلك (أجعل الآلهة إلهًا واحدًا) [ص:٥] أي أنهم يقولون لا

يمكن أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! أي أنهم ليست لديهم مشكلة في تعدد الآلهة، ويقولون لك: لم أنت متشدد ومتعصب هكذا!، يعترفون بأن هناك إلهًا لكن لا يلزم بأن يكون إلهًا واحدًا، لا تكن متشددًا هكذا! ثم يقولون بأن هناك آلهةً كثيرةً، لأن الكافر دائمًا يبحث عن مخرج نفسي بأن لا يكون مُلزَمًا.

مثلًا عندما تذهب إلى عمل جديد وتجد قانونًا صارمًا فتسأل من الذي يحاسب على هذا القانون فيقولون لك: المدير... فتسألهم ألا يوجد لهذا المدير معارف ألا يوجد شخص آخر مشاركا لهذا المدير، أنت تسأل وتبحث إن لم تستطع تطبيق هذا القانون فمن الذي سيعفيك من تطبيقه؟ ، لا بد أن يوجد شخص آخر مع المدير، لا يكفي هذا المدير فحسب! تخيل أنك ذهبت للمدير حتى يعفيك من هذا القانون فوجدت أنه لا توجد رشاوى ولا واسطة ولا أي شيء! تخيل أن هناك عملًا بهذا الحال! بالتأكيد هذا نادر إلا ما رحم ربي، ولذلك أقول تخيل! تخيل مثًلا بأن هناك مصلحة حكومية بهذا الحال، مثل المرور مثلًا إن أردت إصدار رخصة قيادة مثلًا فعليك المرور باختبارات نظرية وعملية وهناك قواعد صارمة وهكذا، فعندما قرأت تلك القواعد تساءلت من المسئول عن هذا؟ فقالوا لك فلان، فسألت عن رقم هاتفه واتصلت به، وطلبت منه أن يعفيك من تلك الاختبارات، فقال لك: مستحيل لا يمكن، فالمحاولة التي بعدها أن تبحث عن شخص يعرف هذا المسئول فيتوسط لك عنده، لأنك قررت مسبقًا أنك لن تطبق هذه القواعد والاختبارات ولن تلتزم بها... ولله المثل الأعلى؛ كذلك المشركون قرروا عدم الالتزام... فقالوا هذا القرآن لا يُطبق علينا، ولكن من الذي سيحاسبنا؟ الله، إذًا هل هناك آلهةً أخرى؟ لا، إذًا سنقوم نحن بعمل آلهةٍ أخرى ونقول أنهم شفعاء، ونفعل نحن ما نشاء ثم نجلس على كرسي الاعتراف، ونقول لن نفعل هذا مجددًا، حسنًا لا تفعل هذا مجددًا... وانتهى الأمر!، يحاول أن يتهرب من الحساب!!!

كما قلنا الكثير من الناس يفعلون هذا، يذهب إلى المرور ويسأل ألا يوجد من ينجز لي هذا الأمر دون الحاجة إلى الالتزام بتلك القواعد...بالطبع دائمًا هذا ممكن من خلال الرشاوي والتوسط بالآخرين، فيحولون جميع الأشياء إلى ممكن أو غير ممكن حسب رغبتهم هم وليس حسب القواعد...كما الأمر لأصحاب اللحى يحولون لهم كل ممكن إلى غير ممكن، أي أن كل شيء قابل للتحول حسب الأهواء وليس حسب القواعد...وكذلك هذا التهرب من المشركين للبحث عن آلهةٍ أخرى للهروب من الحساب

(ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) [الأنعام:١] ليس مثلًا لأنهم انبهروا بإلهٍ آخر يخلق، فتعجبوا، وقالوا مثلا: هذا إلهٌ يخلق!، هذا الإله عندما تكون الأرض مجدبةً هو من ينزل المطر من السماء، إنه يخلق لنا الأنعام من العدم، إنه يخلق الفاكهة من غير ماءٍ ولا أرض، عندما نسأله يعطينا؛ هذا كله لم ولن يحدث... إذًا لماذا يعدلون مع الله غيره؟!... هي حيلة نفسية لتحقيق أغراض شهوانية. (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أي: يبحثون عن أحد يشارك الله سبحانه وتعالى.

ونجد أن القرآن المكي استفاض في التوحيد، ولذلك يقول بعض الناس أن القرآن لم يخاطب الملحدين كثيرًا، وإن كانت بعض الآيات تصلح لخطابهم؛ لأن الله يقول: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) [الأنعام:٣٨]. والملحدون -في الأصل- مخالفون للفطرة، فالملحد فطرته منتكسة، ولذلك لم يهتم القرآن بمناقشته كثيرا... هو إنسان مستهزئ! وإن جاءت بعض الآيات تصلح للرد عليه مثل: (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين) [الأنبياء:١٦] ، ومثل قوله تعالى: (وما يهلكنا إلا الدهر) [الجاثية:٢٤]، وهؤلاء هم الدهريون -في سورة الجاثية- الذين يقولون: لا وجود لله، إنما هو الزمن الذي يتحكم، أو الطبيعة! فالقرآن المكي ركز كثيرًا ليس فقط على وجود الله لكن أيضًا على توحيد الله. ركز على أنه إله واحد، وليس على أنه يوجد إله فحسب، فالقرآن تجاوز هذه النقطة إلى أنه إله واحد.

ولاحظ هذه الكلمة التي تدل على خسة الكفار: (ثم الذين كفروا بربهم) [الأنعام:١]، أكفرتم بالذي رباكم بالنعم؟!، بالذي خلقكم من عدم، بالذي يطعمك ويسقيك، كيف تفعل هذا مع ربك؟! (ثم الذين كفروا بربهم) إذا كنت مصرًا على الكفر بربك عش في أرض غير أرضه، وكُل من طعام غير طعامه، ومن رزق غير رزقه، وتحت سماء غير سمائه، ثم اكفر كما تريد! (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) حتى وهو كافر فإنه عندما يقع في مشكلة يلجأ إلى الله، ويقول: يا رب!!! ما هذا والقبح والإجرام! (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون).

من طين ولكن

(هو) أي الذي خلق السماوات والأرض، والذي يستحق الحمد سبحانه وتعالى. (هو الذي خلقكم) تكررت صفة الخلق مرة أخرى، ولكن انتقل هنا مِن خلق السماوات والأرض إلى خلقك أنت. (هو الذي خلقكم من طين) [الأنعام:٢] يا لبعد الفجوة بين الطين والإنسان! أنا أريدك أن تمسك طينًا، هات بعض الطين في يدك، وتَمعن فيه... أين القلب في هذا الطين؟ أين الكِلية؟ وأين المعدة؟ بل أين

المشاعر، أين الخوف، والبكاء، والضحك، والفرح؟ أين الطموح، أين العقل، أين التخطيط، أين الآمال؟ أين كل هذا في الطين؟ فأنت تستطيع أن تصنع من الطين تمثالًا لكن أن تصنع من الطين كائنًا حيًا ينمو ويشعر ويفكر ويتمنى ويخاف ويبكي...! كيف؟ كيف هذا؟! فالبشر استطاعوا أن يصنعوا من الحديد –الذي لم يأتوا به من العدم بالطبع، وإنما هو من خلق الله– إنسانًا آليا، لكنه لا يبكى ولا يشعر بفاقة بداخله ولا يتعبّد ولا يأمل ولا يتمنى ولا يخطط ولا يدبر وليس لديه مشاعر ولا ينمو. هذا ليس خلقًا! والذي يخدع الناس ويوهمهم أن هذا خلق، فهو يخدع نفسه ويخدع الناس. والذي يأتي بالحمض النووي"DNA" ويقوم بعمل استنساخ، ثم يقول: أنا أخلق من العدم فهو واهم! فالله وحده هو الذي يخلق من العدم.

(هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلًا) [الأنعام:٢] الله عز وجل قضى أجلًا ستموت فيه قطعًا، والموت أيضًا يعتبر من الأشياء التي تضغط بها على نفسية الشخص الذي أمامك! فالموت شيء لا يستطيع أحد إنكاره، ولن يستطيع الفرار منه مهما بلغ من العلم... أنا لا أستطيع أن أتخيل بماذا يرد المشرك عندما تقول له: الله خلق السماوات والأرض، وأنت إلهك لم يخلق السماوات والأرض! وتقول له: أنت ستموت، والله العظيم ستموت، ووالله مهما بلغتم من العلم لن تكتشفوا سر الحياة، وستظلون تموتون، وهذا الموت الذى تفرون منه –بأبحاثكم وبعلمكم– لن تفروا منه، فإنه ملاقيكم! بماذا يشعر المشرك وقتها؟ بماذا يرد؟ هذا إنسان يشعر بالعجز، ماذا يقول؟ ليس هناك ما يقال!؛ لأنه سيموت في كل الأحوال، يرى الموت أمام عينيه ولا يستطيع أن يفعل شيئًا! ولذلك هرب المشركون من هذا الأمر، وقالوا: (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) [الجاثية:٢٤] فهم يعرفون أنهم سيموتون، لكنهم لا يؤمنون بالبعث.

فقال الله عز وجل: لا، (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) هناك بعث سيأتي لا محالة! (وأجل مسمى عنده) هذا هو البعث الذي سيأتي! (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) [الأنعام:٢] سوف تموت رُغمًا عنك، وستبعث رُغمًا عنك، والله لتبعثن.

حقًّا تشعر في القرآن بقوة الطرح، حصار نفسي للذي أمامك تخبره و تتركه. مثلما يقول لك واحد لا يوجد امتحان، والله هناك امتحان، ووالله لو ظللت هكذا سترسب، ووالله لو رسبت لتعاني، أنت تعامله

على أن الأمر منتهي، الموضوع قطعي... لا تقول له: ولماذا لا يوجد امتحان؟ فقط اسمع ما سأقوله لك، لا... أنت لا تتعامل معه هكذا، أنت تتجاوز هذه النقاط.

(ثم أنتم تمترون) [الأنعام:٢]

"ثم" هذه أيضًا استبعاد، أي أنت ستموت وتبعث، انظر لما ذُكر البعث جاءت كلمة (تمترون) ، أخطر نقطة يهرب منها الإنسان قضية البعث تلك؛ لأن ما معنى البعث؟ أي حساب، وما معنى الحساب؟ أي جنة ونار، ما معنى جنة ونار؟ أي يوجد قوانين وشريعة علي الالتزام بها، أي لن أعيش كما أريد، ما معنى ذلك؟ أي هناك شهوات سأتركها، لا... لا أريد كل ذلك، هذه الدائرة بدأت من أي كلمة؟ كلمة "بعث"، إذًا لا بعث...نلغيه!!!

لذلك دائمًا نقول المشركين غير اليهود والنصارى، المشركون لا يعرفون المراوغة ،واضح... النبي –صلى الله عليه وسلم– أتى لهم بوحي، قال لهم: أنتم ستحاسبون على هذا الوحي، (كل أمة تدعى إلى كتابها) [الجاثية:٢٨]، متى سنحاسب عليه؟ عندما تموتون، عندما نموت ثم ماذا سيحدث؟ تبعثون وتحاسبون، قالوا: لا يوجد بعث، أنهوا الموضوع بأنه لا يوجد بعث!!!

أما اليهود والنصارى وهم أصحاب دين –اسمهم أهل كتاب– فلا يصح أن يقولوا هذه الكلمة، تخبرهم هناك بعث؟ نعم هناك بعث، توجد جنة ونار؟ نعم توجد جنة ونار، يوجد كتاب ستحاسبون عليه؟ بالطبع! إذًا ما هذا الذي تفعلونه؟! لا، أنت لا تفهم... ماذا يفعل؟ يحرف في النصوص، يُأول النصوص.

وتجد من بني جلدتنا من يقول: هذه الأمور كانت زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– لا تصلح لزماننا هذا!. وتجد أناس تسير وراء المشركين "ملحدون" ويقولون: لا يوجد بعث، وهناك ناس تسير وراء أهل الكتاب وتجده يقول لك: لا، مقاصد الشريعة وآيات الشريعة كلها في القرآن كم آية؟ مائتي آية وهذه المائتي آية كانت مناسبة أيام نزولها فقط ، وربنا قال ليس مهمًا تنفيذ هذه الشريعة بذاتها المهم تحقيق مقاصد الشريعة، فانظروا ما تريدونه وافعلوه!... عجبا! إذا كان الدين هو أن يفعلوا ما يريدوه، ما فائدة الجنة والنار؟! إذا كان الأمر هو العمل ب "الذي تريدونه"، وأهم شيء تتفقون على شيء حسن وتفعلوه... إذا كان الأمر هكذا ما الحكمة من وجود الجنة والنار!... وقد يستدلون ب"أنتم أدرى بأمر

دنياكم"[٢] على فهم العلمانيين طبعا وليس على معنى الحديث، ما فائدة النار؟! أنا لا أفهم، مَنْ إذًا الذي سيدخل النار؟ هو دائمًا يدخل النار السيء، مَنْ السيء؟ أتمنى أن أعرف مَنْ السيء عندهم؟!، لا تقل على أحد كافرًا!، إذًا لمنْ خُلقت النار؟ هل إبليس سيدخل النار وحده؟! لا ينقصهم إلا أن يقولوا: إبليس لن يدخل النار، (ثم أنتم تمترون) أول ما تُذكر كلمة (البعث) يظل يلف ويدور.

(وهو الله في السماوات و في الأرض) [الأنعام:٣] الله أي بمعنى المعبود، الإله، أي له الألوهية، إذًا الربوبية دائمًا تستلزم الألوهية، ما معنى أن الربوبية تستلزم الألوهية؟ -حتى لا يكون الكلام مصطلحات غير مفهومة- أي كما قال ربنا: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ) الذي خلق لا بد أن يأمر (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) [الأعراف:٥٤] هو الذي خلق إذًا هو الذي يضع الأوامر والنواهي -سبحانه وتعالى- يفعل ما يشاء في ملكه -سبحانه وتعالى-، وسيحاسبك على ذلك وسيحاسبك حسابًا تفصيليًّا (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) [الأنعام:٣] سيحاسبك حسابًا تفصيليًّا على كل أعمالك؛ لأنه يعلم السر ويعلم الجهر ويعلم مدى تأثير هذه الآيات عليك (ويعلم ما تكسبون) بصيغة المضارع، كل خطوة في حياتك الله عز وجل يعلمها.

أكرر مرة أخرى، ثلاث آيات بدأت بهم السورة، قبل أن يبدأ ربنا يكلمنا عن المشركين ثلاث آيات، الله -عز وجل- الخالق؛ خلق السماوات والأرض، (وجعل الظلمات والنور) هذه الآية الأولى، الآية الثانية: الله -عز وجل- خلقكم أنتم وستموتون حتمًا في ميعاد لا يعلمه إلا الله، ثم تبعثون في ميعاد لا يعلمه إلا الله، بما أنه خلق السماوات والأرض وبما أنه خلقكم وستموتون إذًا ستحاسبون، وعلى أي شيء يحاسبك؟ على ما يعلمه منك فهو يعلم سرك وجهرك، وستحاسب على كل شيء على النقير والقطمير (ويعلم ما تكسبون). آيات واضحة، تأصيل واضح لبداية سورة الأنعام، مقدمة واضحة... ماذا فعل المشركون تجاه هذه الآيات، ماذا فعلوا؟

يقول الله عز وجل (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) [الأنعام:٤] ستجد طوال سورة الأنعام طلبات متكررة للمشركين لرغبتهم في نزول آية، "أَرِنَا آية"! أريدك أن تتخيل أن هذه

---

[٢] - [عن أنس بن مالك:] أَنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ بقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقالَ: لو لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ قالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بهِمْ فَقالَ: ما لِنَخْلِكُمْ؟ قالوا: قُلْتَ كَذا وَكَذا، قالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بأَمْرِ دُنْيَاكُمْ.
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٣٦٣ • [صحيح]

الآيات دائمًا تسير في سياق واحد. وهنا نقطة مهمة؛ فهم الآية وحدها قد يكون فهمًا ناقصًا عندما تأخذه وسط السياق يكتسب معانيه الصحيحة الكاملة.

دائمًا ضع الآية في سياقها، النبي صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم الثلاث آيات الأولى، هناك إله واحد، له الحمد سبحانه وتعالى، هذا الإله جعل الظلمات والنور، هذا الإله خلقكم من طين، هذا الإله قضى أجلا وأجل ستبعثون فيه ويعلمه، ماذا قالوا له؟ قالوا: نحن لا نصدقك ائت لنا بآية، ألست تقول جعل الظلمات والنور؟ نريد آية. نزلت عليهم آيات القرآن مرارًا وتكرارًا سواء آيات القرآن أو الآيات التي في القرآن تشير إلى الكون أو إلى أحداث -مثل الآيات التي معنا في سورة الأنعام-. ربنا سبحانه وتعالى يقول خلال هذه الآيات: (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ) [الأنعام:٤]

كلمة (ربهم) أي من هو أعلم بمصالحهم وأعلم بهم لأنه الذي خلقهم ويربّهم

وما تأتيهم: ركز على كلمة "تأتيهم" أي تصل إليهم، كقوله تعالى: (ولقد وصلنا لهم القول) في سورة القصص[القصص:٥١].

مراحل تعامل المشركين مع الأيات

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا..) إلا أعرضوا عنها...صحيح؟ إلا ماذا؟ (إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

ما معنى (إلا كانوا عنها معرضين)؟ ولم يقل: كانوا عنها يعرضون بل (كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ): قمة الثبات في الإعراض (كانوا عنها معرضين)

كانوا: تفيد الكينونة، أي أنه أصبح من كينونته ومن تركيبته أنه صار إنسانًا معرضًا.

ركزوا معي جيدًا، جاء في ثلاث آيات وصف لأفعالهم، هم فعلوا ثلاثة أمور:

١- الإعراض التام

كلما أردت أن تكلمه لا يستمع إليك، تقول له: اسمع سأقرأ عليك آيات، اسمع وأعط لنفسك فرصة، لكنه لا يفعل. الصفة الأولى: الإعراض التام .

٢- **التكذيب**

(فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ) [الأنعام:٥]

٣- **الاستهزاء**

(فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [الأنعام:٥]

هذه هي المراحل الثلاثة التي يمر بها المشركون: إعراض يليها تكذيب يليها استهزاء.

تريد أن تكلم أحدًا في الشريعة -كإسقاط على واقعنا-، إذا لم يكن عنده استعداد ليسمع، إذا لم يؤمن بالثلاث آيات الأولى، إذا لم يؤمن أن هناك إلها، وأن هذا الإله هو الذي خلق، وأن هناك ظلمات ونور أي توجد كفريات ويوجد طريق منقذ واحد...

ما الذي يجعل الإنسان يشعر بالقلق؟ معرفته بأن هناك خطر الضلال. ما الذي يجعل الإنسان يقلق؟ لِمَ يقلق إن كان يظن أنه في حال جيد؟ [قد يقال له: لماذا تقلق أنت بخير ولا تقوم بتصرفات سيئة؟ لا تؤذي أحدًا ولا تغضب أحدًا ولا تفعل فاحشة ولا تصلي ولا تصوم، أنت لا تفعل شيئًا مطلقًا، لكن المهم أنك لا تؤذي الناس، أنت هكذا إنسان صالح؛ ما الذي يجعلك قلقًا!!!]

ربنا سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة أخبرنا من ماذا يجب أن نقلق، لِمَ تقلق؟...أنت لماذا تطلب الهداية (اهدنا الصراط المستقيم () صراط الذي أنعمت عليهم) [الفاتحة:٦،٧] ؟ لأن هناك أناس غضب الله عليهم وأناس ضلوا؛ من المحتمل أن تكون منهم، وأنت تطلب الهداية كأنك تقول: يا رب أنا أخاف جدا أن أكون من هؤلاء... الهداية طريق محفوف بالمخاطر مثل الصراط الذي نصب على متن جهنم - نسأل الله العافية والسلامة- لا تعتقد أن الهداية هي أن تختار أي شيء وترى ما الذي يريدونه فتفعله، كلا...! مثل ما يصورون لنا الدين على أنه مقاصد وأن أهم ما في الدين أن تكون علاقاتكم مع بعضكم البعض حسنة... كلا؛ الدين طريق وسط محفوف بالمخاطر.

أنت تقول: (اهدنا الصراط المستقيم) [الفاتحة:٦] ، هناك أناس قد وصلوا-الوصول أيضا ليس مستحيلًا- وقد وصلوا بفضل الله (صراط الذين أنعمت عليهم) ولم يقل: "صراط الذين سلكوا"...بل (صراط الذين أنعمت عليهم) يا رب أنا أشعر بالرعب الشديد لا أريد أن أكون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) [الفاتحة:٧].

فالمعرض إذًا هو الذي لا يؤمن بالثلاث آيات الأولى، لا يؤمن أن هناك ظلمات وأن هناك نور، وأن هناك موت بعده حساب، وأن هناك أجل مسمى، وأن خفايا الصدور مكتوبة ومعلومة؛ فلذلك دائما نكرر هذا المعنى في القرآن (**البدء بإلزام الناس بالتشريعات قبل إيمانهم بهذه الآيات وهذه المعاني هو ضرب من الجدال والمراء الذي ليس له أي قيمة**) مثل ما كنا نشاهد في البرامج التي تناقش أمورًا في الشريعة بنقاش باهت، وهذا خطر!

إذًا الأمر الأول: الإعراض التام.

س/ ماذا عن [إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن][٣] ؟

ج/ هذا أثر، [إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن] يزع أي يُحدث تغيير أو يمنع، أي من الممكن أن وضع قوانين رادعة ينفذها السلطان فيرتدع الناس... لكن هذا عندما يكون أهل الحق لديهم سلطان وقوة، عندما يكون لديك سلطان طبّق، مثلًا في حالة عدم اقتناع الناس بالزكاة وأنت مُمَكَّن فتبعث أحدًا يجمع الزكاة، وتطبق العقاب المقرر في الشريعة لمانعي الزكاة.. أنه يؤخذ منه مال أكثر، هناك طرق معينة -على خلاف بين بعض العلماء في فهم هذا الحديث-، فهناك ضوابط للعقوبات، فالحدود هي ضوابط وعقوبات لمن لا يطيع.

إذًا الأمر الأول: الإعراض التام. لاحظ (إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ () فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ) [الأنعام:٤،٥]

أجمل ما قرأت- عن رشيد رضا-في هذه الفاء: **أنها فاء سببية**: أي فتسبب عن إعراضهم أنهم كذبوا، فيقول أن أكبر سبب للتكذيب بالحق هو الإعراض، ماذا يعني الإعراض؟ أي أنك لا تسمع (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل) [الملك:١٠]

هو لن يعقل إلا بعدما يسمع أولًا، لذلك يقول ربنا (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها) "الفاء" ذكرت في سورة الكهف [اية:٥٧]

"ثم" ذكرت في سورة السجدة (وَمَن أَظلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعرَضَ عَنها) [اية:٢٢]

---

[٣] - عن عثمانَ بنِ عفانَ رضي الله عنه قال إنَّ اللهَ يزَعُ بالسلطانِ ما لا يزَعُ بالقرآنِ
ابن باز (١٤١٩ هـ)، مجموع فتاوى ابن باز ٣٩٣/٢٧ • ثابت

الفاء ذكرت في الكهف سورة الفتن التي فيها الدجال وفيها المغريات (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها) [الكهف:٧] جاءت معها الفاء، إنه لن يسمعك من الأساس، (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها) فاء الفورية، لن يسمعك

أما (ثم أعرض عنها) -في سورة السجدة- أي بعد ما عقل ورأى الآيات أصر على الإعراض، هذه في السجدة، السجدة تعتبر آخر (ألم) المكي بعدها تأتي سورة الأحزاب.

فهنا في سورة الأنعام (فقد كذبوا بالحق) [الأنعام:٥]

هذه الفاء فاء السببية، أي تسبب عن الإعراض قطعًا التكذيب ، وهذا في أي شيء. فمثلًا مسألة فقهية وفيها خلاف فعلا؛ مرةً كنت أتحدث مع أحد الإخوة في مسألة-هو مستقر أن ما يتبناه من رأي هو الحق الأوحد - فيناقشني في المسألة ويتكلم أنها قولًا واحدًا، قلت له: هناك رأي ثلاثة من الأئمة مختلف فقول الجمهور عكس القول الذي تقوله، قال لي أنت قليل الأدب! هو لا يريد أن يسمع! قد يكون الراجح لديك بالدليل، وحقك أن تعتقد صحة هذا القول، تريد أن تنكر الرأي الآخر بأسلوب طيب، أيًا كان، لابأس ...لكن اسمع!

فهو هنا- معنا في الآيات- لا يريد أن يسمع، لماذا؟ لأن كل دنياه ومصالحه مستقرة بناء على هذا الاعتقاد!

مثلًا هناك آلهة؛ الآلهة يضعونها بطريقة معينة تأتي لهم بالمال، يفعلون الشهوات ثم يذهبون إلى الآلهة ويظنون أنهم شفعاء عند الله! فأنت تأتيه لكي تهدم له كل هذه المنظومة فيعترض على هدمها.

مثلًا أن تذهب لشخص نصراني حياته كلها تسير في منظومة معينة، فتقول له أنا سأكلمك عن الإسلام، فيقول لا! أو شيعي مثلًا فتقول له سأكلمك عن السنة! أي أحد تقول له سأكلمك، هو لا يريد أن يسمع لأنه يفهم أن هذا الكلام إذا سمعه واكتشف أنه صحيح هذا معناه أنه سيحدث تغيير في حياته، فهو لا يريد التغيير فلا يريد أن يسمع!

مداخلة من أحد الحضور...

نعم هو يظن ان ما معه الحق... فأنت تأتي له بالحق الذي معك وما مصدره؟ الكتاب والسنة... فإن قال لك انا وأنت سواء... فقل له تعال لأعرض عليك الحق من مصادره بالقرآن والسنة

ربنا سبحانه وتعالى قال: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا...) [البقرة:٧٨]

قبل أن يتحول الكتاب عندهم إلى أماني فقط... قال الله عنهم أولًا أنهم (أُمِّيُّونَ) ما معناها؟ ليس معناها محصورًا فيمن لا يعرف القراءة والكتابة، فـ (أمّيون) تعني أنه لا يعرف شيئًا في الدين، لا يعرف أي شيء في الدين!

ولذلك تجد اليوم من كان مسلمًا ثم تنصر، هو في الأصل لم يكن يعرف شيئًا في دينه، فهو أُمّي في الدين، لا يعلم من الكتاب إلا القليل. فأغلب من يُستخف به إنما يُستخف به لأنه جاهل.

لذلك على مدار التاريخ تجد أغلب من ينتقل من النصرانية واليهودية والبوذية إلى الإسلام هم علماء، مفكرون، وعلماء في دينهم. وعلى العكس تجد أغلب من ينتقل من الإسلام لغير ذلك تجده من الرعاع، من الأميين في الدين، أو ربما يكون قد فُتن. أنا لا أريد أن أعمم، فربما يكون عالمًا ثم يُفتن مثل عالم بني إسرائيل الذي فُتن، كما قال الله عز وجل: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آياتنا) [الأعراف:١٧٥]

لكني أتحدث عن أغلب الحالات: أغلب من يدخل الإسلام يكون قد درس وقرأ. وبعدما يدخل الإسلام، يذهب إلى من كانوا على ديانته السابقة، ويقول لهم: هلموا لأناظركم!، لكن المسلم عندما ينتقل إلى ديانة أخرى لا يقول ذلك، لا يقول للمسلمين: تعالوا لأناظركم، بل يقول: اتركني لحالي، ولا تتدخل، أو قد يرمي بعض الشبهات على النت، ويرفض أن يسمع الرد! أما الذي ينتقل للإسلام تجده يقول: أنا سأذهب للقساوسة لأناظرهم. أو تجد شخصًا كان شيعيًا ثم أصبح سنيًا، فيكتب لهم لينصحهم، فيقتلونه! أو ربما كتب مذكراته –مثلًا– يتحدث فيها عما شاهده، فيقتلونه! أو النصيريون! فأنا كنت أقرأ عن شخص ترك النصيرية، وكتب عنهم، فقتلوه!

إذًا؛ الأمر الأول هو: الإعراض. الإعراض يجعله لا يسمع الأدلة والردود، فينظر يجد مظهره سيء–أنه رفض السماع– فيبدأ في تكذيبك، فالأمر الثاني هو: التكذيب، سيكذبك! والأمر الثالث هو: الاستهزاء، سيستهزئ بك!

لاحظ ترتيب الآيات، ماذا يقول ربنا؟ (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ) [الأنعام:٥]

كان من المتوقع أن تُختم الآية بـ: فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يكذبون. فقد كان من المتوقع أنه بعدما قال الله (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ) بالتالي سيأتيهم عقاب ما كانوا به يكذبون. لكن الله عز وجل ختم الآية بـ (يستهزئون) لأن هذه هي الخطوة الحتمية الثالثة التي تحدث.

ما هي الخطوة الحتمية الثالثة التي تحدث؟ هو لا يستطيع أن يناظرك، وهو في الأصل مُعرض، ومكذّب بدون أن يفهم التفاصيل، لذلك يلجأ لأسلوب الاستهزاء! واعلم أن الذي يلجأ لأسلوب الاستهزاء – في الغالب– يكون لديه أكثر من مشكلة. المشكلة الأولى أنه وصل للمرحلة الأخيرة في البعد، فقد ابتعد كثيرا عن الدين! فهو أعرض، وبعد ذلك كذّب، وبعد ذلك استهزأ. وقلما –بل يستحيل– أن يجتمع في إنسان واحد أن يكون جادا باحثا عن الحق وفي نفس الوقت مستهزئا، لا يجتمعان! فالذي يشعر أن الموضوع خطير، ويعرف أن الأمر جنة ونار، هداية وضلال، نور وظلمات ويتعامل بهذه العقلية وهذه النفسية، لا يمكن أن يكون مستهزئا. فليس من المعقول أن نقول له: تعال، فنحن نريد أن نكتشف سر قنبلة نووية، أو عملية جراحية خطيرة، ثم تجده يسخر أو يتعامل مع الموضوع باستهزاء. فإذا استهزأ دل ذلك على أنه غير قادر على تقدير قيمة هذا الموضوع. فالذي وصل لمرحلة الاستهزاء خرج من الجدية التي تؤدي إلى اليقين.

الوصول لليقين يحتاج إلى جد، وليس استهزاء. الوصول لليقين يحتاج إلى خوف من الله سبحانه وتعالى. أهم شيء أن تكون متقيا، كما قال ربنا في السورة: (وأنذر به الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ) [الأنعام:٥١]

، لكن هؤلاء يجادلون ويجادلون، فقال ربنا للنبي: اتركهم، (وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ). فالذي يخاف من البعث والحشر هو الذي سيصل للحق، إنما الذي يتعامل بسخرية، ويقول: "قل لي ماذا لديكم؟! اعرض علي الإسلام! قل لي ماذا يقول لكم هذا الدين؟!" لن يصل. فطالما أنه يتعامل بهذه الطريقة الساخرة، لن يصل أبدًا! أما الذي بحث بجد –كما تخبرنا قصص كثيرة– وصل للإسلام. فالخائف المرعوب –أي الحريص– يُوفّق، مثل سيدنا سلمان الفارسي الذي ظل يبحث في كل مكان حتى يصل، وبالفعل هداه الله!

(فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [الأنعام:٥]

ما معنى هذا؟ قال العلماء: (فسوف يأتيهم) : هم كانوا يستهزؤون بالبعث وبالحساب، وسيرونه حتمًا، وهذا هو أحد معاني قول الله عز وجل (هذا) في سورة يس [اية:٥٢]

(هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ). قال بعض المفسرين: (وصدق المرسلون) أنه من قول المبعوثين وليس من قول الملائكة.

(هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) [يس:٥٢]

ما معنى (وصدق المرسلون) ؟

هناك من يرى أن هذا قول الملائكة وليس قول الكفار

وهناك من يرى أنه قول الكفار أي كأنهم قالوا: فعلًا صدق المرسلون. الكلام الذي كانوا يقولونه لنا ظهر أنه حقيقي، اكتشفنا أن الكلام الذي كان يقال لنا في المساجد لم يكن كلام تخويف، ليس تشددًا ولا تهويلا، كان معهم حق فعلا. ولهذا يقال لهم يوم القيامة: (فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا) [الأعراف:٤٤]

هل وجدتم الأمر جادًّا أم سخرية؟ نحن وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، كنا من البداية متأكدين منه ووجدناه، وجدنا الجنة ووجدنا ما قاله ربنا تبارك وتعالى، ماذا عنكم أنتم؟! (قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [الأعراف:٤٤]

(فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [الأنعام:٥]

أنباء لها معنيان: البعث أو عقاب ذلك في الدنيا. (أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أي عاقبة استهزائهم ستحدث في الدنيا مثل يوم بدر، البطشة الكبرى، أو سنين كسنين يوسف، أو أي عذاب دنيوي...أو عذاب الآخرة (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

توجيه

أريد أن أنبه لقضية مهمة: عندما تجد الشخص الذي أمامك قد وصل إلى مرحلة الاستهزاء، اسكت، أعرض عنه، خوّفه واتركه (أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) فعلًا لا تستقيم نفسية إنسان مستهزئ وفي نفس الوقت يكون جادًا وباحثًا عن الحق، هذا غير ممكن، هو ليس إنسانًا جادًا لتتكلم معه، فأنت تتكلم في أمر جِدّيّ (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) [الأنبياء:١٦]

كل هذا ليس لعبًا.

بعدها قال ربنا سبحانه وتعالى: (ألم يروا) أنتم الآن معرضون عن كل الآيات سأدلكم على أمر آخر، (ألم يروا) هنا ربنا سبحانه وتعالى ذكر لهم آية بصرية يرونها بأعينهم، كذبوا بآيات القرآن (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم...) قيل: آيات القرآن، (...إلا كانوا عنها معرضين() فقد كذبوا بالحق) [الأنعام:٤،٥]

أي فنتج عن إعراضهم عن القرآن تكذيبُهم بالحق.

[من المهم ليس فقط فهمك للمعاني الإيمانية والتربوية بل مهم أيضا فهمك الصحيح لألفاظ الآيات–كما فعلنا في سورة البينة– بحيث لو أن هناك معاني تربوية إيمانية لم أقلها ولا أعرفها وليست مكتوبة، فتوفق أنت لها، لكن عن فهم صحيح فيكون بذلك الأساس قد وُضع عندك بشكل صحيح]

وما تأتيهم آية من آيات القرآن إلا أعرضوا عنها، فنتج عن إعراضهم عن القرآن تكذيبُهم بدين الله عز وجل وهو الحق، ثم ازدادوا كفرا واستهزأوا بدين الله عز وجل فسوف يأتيهم عاقبة هذا الاستهزاء في الدنيا أو فسوف يرون هذه الحقائق في الآخرة أو كلا المعنيين.

انتقل السياق هنا إلى آية بصرية أمامهم لا ينكرونها يقول تعالى: (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم) [الأنعام:٦]

هم يعرفون ذلك، كما ذكر في الآية التي في آخر سورة الصافات: (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين () وبالليل أفلا تعقلون) [الصافات:١٣٧،١٣٨]

أنت تمرّ بهم ذهابا وإيابا، تمرّ على مواطن إهلاك الظالمين. إذا قلت لك يا أخي عندما تزور الهرم والفراعنة، أنت ترى آثار المجرمين فمن المفترض أن تتعظ، فهؤلاء لطالما مُكِّن لهم في الأرض ثم أهلكهم الله، عندما ترى جثة فرعون التي أنقذها ربنا حريٌّ بك أن تتعظ. قد يقول قائل: لا لا... هذا ربما مات في حادث !!!؛ إنما مشركي العرب يعلمون أن الله قد أهلك قوم لوط وقوم ثمود وغيرهم ويعترفون بهذا، وكانوا يمرّون عليهم ويعلمون أنه كان هنا حضارة قوم وهلكوا... كانوا يعرفون هذه الأنباء لدرجة أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان يقول هذه القصص في القرآن يقولون له: "نحن نعرف هذه القصص أنت أخذتها من الأساطير"؛ أيعقل أن تعرفها وتمرّ عليها بدون ردة فعل!

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: **" لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين ، أن يصيبكم مثل "**[٤] رواه البخاري، وحين مر عليه الصلاة والسلام على منازل قوم صالح في غزوة تبوك فقنَّع رأسه ثم أسرع... ولما بعض الصحابة استعملوا الماء هناك أخبرهم أن يلقوا الطعام أو يطعموه للدواب ولا يأكلوا منه شيء[٥]. فيجب أن نتعامل بحذر مع الآيات، الله عز وجل ذكر لهم آية بصرية يرونها أمامهم ويعرفونها، فربنا سبحانه وتعالى يُرينا الآيات ولكن للأسف نحن نغفل عنها (وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا) [الزخرف:٤٨]

الآيات تأتي واضحة.

الكسوف ما زال يحدث حتى الآن وهذا أمر يجب أن يخاف منه الإنسان!، وكذلك الأعاصير؛ هذه الآيات هي لتخويف الإنسان، ولكن (وما يزيدهم إلا نفورا) [الإسراء:٤١]

---

[٤] - [عن عبدالله بن عمر:] "لا تَدْخُلُوا مَساكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ، إلّا أنْ تَكُونُوا باكِينَ، أنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أصابَهُمْ."
البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٣٣٨١ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٣٣٨١) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٠)

[٥] - [عن عبدالله بن عمر:] أنَّ النّاسَ نَزَلُوا مع رَسولِ اللَّهِ ﷺ أرْضَ ثَمُودَ، الحِجْرَ، فاسْتَقَوْا مِن بئْرِها، واعْتَجَنُوا به، فأمَرَهُمْ رَسولُ اللَّهِ ﷺ أنْ يُهَرِيقُوا ما اسْتَقَوْا مِن بئْرِها، وأنْ يَعْلِفُوا الإبِلَ العَجِينَ، وأَمَرَهُمْ أنْ يَسْتَقُوا مِنَ البِئْرِ الَّتي كانَتْ تَرِدُها النّاقَةُ.
البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٣٣٧٩ • [صحيح]

كان كلما يحدث الكسوف أو الخسوف في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم– يدخل ويخرج ويدخل ويخرج وكان يشعر بالخوف، وأمنا عائشة –رضي الله عنها– تقول له "أعرف الخوف في وجهك"[٦] ويقوم ويصلي أطول صلاة، كان من الممكن أن يخبره الله ألا يخاف وأن ذلك يحدث نتيجة أن الأرض تكون بين الشمس والقمر، ولماذا أنت خائف هذه مجرد ظاهرة فلكية جميلة تحدث وشاهدوها بدون خوف، أليس هذا رسول الله لماذا لم يقل الله له ذلك؟، أم أنك مكذب بقصة الرسالة!!! وهذه نقطة أخرى نبدأ لها من نقطة قبل ذلك.

لكن أنت تقول لي الآن أنك مصدق بهذه الأحاديث وهذه الأخبار، فعليك أن تشعر بالخوف، تخاف من أن يأتي معها عذاب، المشكلة هنا في أن الله يقول لهم (أ لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن) [الأنعام:٦]

هذا المثل تكرر كثيرا في القرآن، أن هذا التمكين الموجود لديكم الآن؛ من جاءوا قبلكم كانوا أكثر منكم تمكينا، وهنا تكمن المشكلة أن كل قرن أو كل زمان يأتي يعتقد أهله أنهم أكثر تمكينًا، وهذا يشبه تماما الفكرة التي تحدثنا عنها في سورة الحجر (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) [الحجر:٨٢]

قصة قوم ثمود– الذين جاؤوا بعد قوم عاد–كانوا ينحتون الجبال آمنين من ماذا؟ فسروها بأنهم آمنين من نوائب الدهر، ما هي نوائب الدهر التي يخافون منها؟ قوم عاد قبلهم أُهلكوا بريح... ولذلك قالوا: سنبني بيوتنا بداخل الجبال حتى لا تؤذينا الريح (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين)!!!فجاءهم العذاب بالصيحة.

القذافي مثلا تم ضربه من ناحية الاتحاد الأوروبي، ففكر بشار أن عليه أن يرتب مع الاتحاد الأوروبي، فهو يتوقع أن تأتي بنفس الطريقة، يعتقد أن طريقة البلاء لن تتغير،– كحال من يقول "عندما تمطر احترز فأقوم ببناء سقف مثلا"–، ولكن الله يقول (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) [الحشر:٢]

فمن الممكن أن تأتي من أي شيء لاتتوقعه حتى ولو ببعوضة.

---

[٦] - [عن عائشة أم المؤمنين:] ما رَأَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ مُسْتَجْمِعًا ضاحِكًا، حتّى أَرى منه لَهَواتِهِ، إنَّما كانَ يَتَبَسَّمُ، قالَتْ: وَكانَ إذا رَأى غَيْمًا، أَوْ رِيحًا، عُرِفَ ذلكَ في وَجْهِهِ، فَقالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، أَرى النّاسَ، إذا رَأَوُا الغَيْمَ فَرِحُوا، رَجاءَ أَنْ يَكونَ فيه المَطَرُ، وَأَراكَ إذا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ في وَجْهِكَ الكَراهِيَةَ؟ قالَتْ: فَقالَ: يا عائِشَةُ ما يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكونَ فيه عَذابٌ، قدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بالرِّيحِ، وَقَدْ رَأى قَوْمٌ العَذابَ، فَقالوا: {هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا}[الأحقاف:٢٤].
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٨٩٩ • [صحيح]

يأجوج ومأجوج الذين سيأتون في آخر الزمان، سيدنا عيسى سيُمكنه الله من قتل الدجال ، أكبر فتنة تمر علي الأرض وهي الدجال، سيُمكن الله سيدنا عيسى من قتله، فهو عندما يرى سيدنا عيسى سيذوب مثلما يذوب الملح في الماء ويبدأ في الجري، فيقول له سيدنا عيسى : إن لي فيك ضربة لن تخطئك ؛ أي أنه لا بد وأن أصيبك، فهذا أمر قدري محتوم فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله. ثم يقول الله لسيدنا عيسى : إِنِّي أخرجْتُ عبادًا لا يَدَانِ لأحَدٍ بقِتالِهِمْ فحرِّزْ عبادِي إلى الطُّورِ .

والحديث في صحيح مسلم[٧]، أي أن لي عباد لن تستطيع أن تواجههم ،فخذ عبادي إلى الطور في سيناء، فيلجأون إلى الله، فيرسل الله عليهم النغف، أي أن قصة يأجوج ومأجوج ستنتهى بالنغف! كما

---

[٧] - [عن النواس بن سمعان الأنصاري:] ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فيه وَرَفَّعَ، حتَّى ظَنَنَّاهُ في طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذلكَ فِينَا، فَقالَ: ما شَأْنُكُمْ؟ قُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فيه وَرَفَّعْتَ، حتَّى ظَنَنَّاهُ في طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقالَ: غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عليكُمْ، إنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فأنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وإنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي علَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إنَّه شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بعَبْدِ العُزَّى بنِ قَطَنٍ، فَمَن أَدْرَكَهُ مِنكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عليه فَوَاتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ، إنَّه خَارِجٌ خَلَّةً بيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، وَما لَبْثُهُ في الأرْضِ؟ قالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ قُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، فَذلكَ اليَوْمُ الذي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فيه صَلَاةُ يَومٍ؟ قالَ: لَا، اقْدُرُوا له قَدْرَهُ، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، وَما إسْرَاعُهُ في الأرْضِ؟ قالَ: كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي علَى القَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فيُؤْمِنُونَ به وَيَسْتَجِيبُونَ له، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عليهم سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ ما كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي القَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عليه قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عنْهُمْ، فيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ ليسَ بأَيْدِيهِمْ شيءٌ مِن أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بالخَرِبَةِ، فيَقولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، يَضْحَكُ، فَبيْنَما هو كَذلكَ إذْ بَعَثَ اللَّهُ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنَارَةِ البَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ علَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وإذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ منه جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حتَّى يُدْرِكَهُ ببَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ منه، فَيَمْسَحُ عن وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بدَرَجَاتِهِمْ في الجَنَّةِ، فَبيْنَا هو كَذلكَ إذْ أَوْحَى اللَّهُ إلى عِيسَى: إنِّي قدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لا يَدَانِ لأَحَدٍ بقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إلى الطُّورِ وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ علَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ ما فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فيَقولونَ: لقَدْ كانَ بهذِه مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حتَّى يَكونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِن مِئَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ اليَومَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فيُرْسِلُ اللَّهُ عليهِمُ النَّغَفَ في رِقَابِهِمْ، فيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إلى الأرْضِ، فلا يَجِدُونَ في الأرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إلى اللهِ، فيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لا يَكُنُّ منه بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأرْضَ حتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَومَئِذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ في الرِّسْلِ، حتَّى أنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإبِلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفِي القَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكْفِي الفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبيْنَا هُمْ كَذلكَ إذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ، فَعليهم تَقُومُ السَّاعَةُ=

أن قصة فرعون انتهت بالعصا!...هلاك الظالمين قد يأتي بضربة عصا، فنحن أحيانا نعتقد أننا سننتظر طوييلا!.. قال ربنا عن إخراج اليهود من المدينة (ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) [الحشر:٢]

أي أننا نظن أن فلان الظالم لن يهلك[نظن؛ كيف يقع وهو على اتفاق مع روسيا وروسيا على اتفاق مع إيران وعلى اتفاق مع أمريكا وهم فقط مجموعة من السنة المستضعفين في سوريا] قد تقول مستحيل (ما ظننتم أن يخرجوا) أنت تظن ذلك، وهم (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) من الله وليس من المؤمنين

(فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب) [الحشر:٢]

ماذا ستفعل في الرعب؟!، كيف ستتحصن منه! أنت بشر قلبك بيد الله.

هذه هي مشكلة من يُمكن في أمر ما، أول كلمة يقولها (ما أظن أن تبيد هذه أبدا) [الكهف:٣٥]

كيف ذلك وكل من كان قبلك قد باد؟!، يقول لك أنا أعرف وسأستعد وأحتاط! هم لم يكونوا مستعدين ولا محتاطين (ما أظن أن تبيد هذه أبدا) لقد أخذت كل الاحتياطات الأمنية وكل الأمور مستقرة ، وأنا على وفاق مع أمريكا ومع إسرائيل، من الممكن أن تأتي لك من ناحية أخرى، لا...لا سأحتاط من كل شيء!!! ، فهو معتقد أنه في مأمن ولكن الله يقول (فآتاهم من حيث لم يحتسبوا) [الحشر:٢]

فهنا يقول لهم إن كنتم مغترين بهذا التمكين، فمن سبقكم كانوا أكثر منكم تمكينا (وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها) [الروم:٩]

= حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ حُجْرٍ السَّعْدِيُّ، حَدَّثَنَا عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ يَزِيدَ بنِ جَابِرٍ، وَالْوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ، قالَ ابنُ حُجْرٍ: دَخَلَ حَدِيثُ أَحَدِهِما في حَدِيثِ الآخَرِ، عن عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ يَزِيدَ بنِ جَابِرٍ، بهذا الإسْنَادِ، نَحْوَ ما ذَكَرْنَا. وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ: لَقَدْ كانَ بهذِه مَرَّةً مَاءٌ، ثُمَّ يَسِيرُونَ حتَّى يَنْتَهُوا إلى جَبَلِ الخَمَرِ، وَهو جَبَلُ بَيْتِ المَقْدِسِ، فيَقولونَ: لَقَدْ قَتَلْنَا مَن في الأرْضِ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَن في السَّمَاءِ، فَيَرْمُونَ بنُشَّابِهِمْ إلى السَّمَاءِ، فَيَرُدُّ اللَّهُ عليهم نُشَّابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا وفي رِوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ: فإنِّي قدْ أَنْزَلْتُ عِبَادًا لِي، لا يَدَيْ لأَحَدٍ بقِتَالِهِمْ.
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٩٣٧ • [صحيح]

حتى كلمة (أثاروا) في سورة الروم تدل أنهم قاموا ببناء مباني ضخمة للغاية، (أَلَمْ يَرَوا كَم أَهلَكنا مِن قَبلِهِم مِن قَرنٍ مَكَّنّاهُم فِي الأَرضِ ما لَم نُمَكِّن لَكُم وَأَرسَلنَا السَّماءَ عَلَيهِم مِدرارًا وَجَعَلنَا الأَنهارَ تَجري مِن تَحتِهِم فَأَهلَكناهُم بِذُنوبِهِم)[الأنعام: ٦]

فبماذا أهلكناهم؟...بذنوبهم ، هذه الكلمة تُصادم أغلب المفكرين في التفسير المادي للتاريخ، ماذا يعني التفسير المادي للتاريخ ؟...يتحدثون عن الدورات الحضارية، وأسباب تدهور الحضارة، كل هذه الأمور مهمة لن نقلل من أهميتها ولكن ينقصها ما هو أهم، وهو أن الهلاك قد يأتي بسبب الذنوب.

حتى أن بعض الإسلاميين أو المفكرين المسلمين يقولون أن الذنوب ليست بذاتها هي المهلكة، فقالوا الذنوب تؤدي لانتشار الفاحشة والظلم، الظلم يؤدي للكسل والترف، الترف يؤدي لعدم الاهتمام بالأمور الحضارية، فتدور الدورة وتشيخ هذه الدولة فتسقط... هذا أمر موجود ومشاهد؛ لكن ليست هذه الطريقة الوحيدة للإهلاك بالذنوب، هذا التدرج موجود في القرآن، (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ) [الإسراء: ١٦]، هذا موجود بالفعل، لا ننكر وجود ما يسمى "الدورة الحضارية"، وقد يكون هذا سبب تأخر سقوط الدول الفاسدة، لعدم اكتمال الدورة وأن نصاب الفساد لم يكتمل بعد.

لكن ليست هذه هي الطريقة الوحيدة للإهلاك بالذنوب، هناك ذنوب فينزل الله عقابه ويرفع البركة فتسقط الدولة...قد يأتي عقاب من الله مثلما جاء لقوم سبأ المترفين في سورة سبأ (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) [سبأ: ١٦] سيل العرم لم يحدث بسبب الظلم ولكنه عقاب من ربنا سبحانه وتعالى، ومثل النغف الذي سيتسلط على يأجوج ومأجوج، أقصد ليس من الضروري أن يمر بدورة حضارية متكاملة، فكلمة (فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) [الأنعام:٦]

جزء مهم من تفسير ما حدث في التاريخ [أن الذنوب سبب للانهيار]، معنى ذلك أنه ليس كل دولة أو حضارة هلكت قد هلكت بأسباب مادية، لكن الذنوب قد تُهلك فتنهار أمم بسببها (فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) [الأنعام: ٦].

يقول لهم ربهم: أنتم لم تصدقوا الثلاث الآيات التي في أول السورة، فكيف تصدقون بوجود إله؟، وكيف تصدقون بوجود بعث؟ (وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ) [الأنعام: ٢]، وكيف تصدقون إنه (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) [الأنعام:٣]

وإنكم ستحاسبون على هذا الكلام...

الله أنزل لهم القرآن فتُفاجأ بأنهم كلما جاءت آية من آيات القرآن كانوا عنها معرضين، مكذبين، مستهزئين، فيقول لهم هناك حل آخر: امشوا في الأرض وانظروا الأمم السابقة كيف كان هلاكهم... لا فائدة!!!...نريد آية حسية!!!

سرد السياق القرآني تفهم منه أن هناك أشياء وطلبات محذوفة تم الرد عليها، هذا من إعجاز القرآن.

وهذا هو دور المفسر المتدبر استنباط المحذوف الذي ردت عليه الآيات، فكأنهم بعد هذا الكلام السابق طلبوا آية مادية محسوسة.

فيقول لهم ربهم: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) [الأنعام: ٧]، معنى ذلك لو تنزلت عليهم الآية المادية الحسية التي طلبوها، ووصلوا بها إلى أعلى درجات اليقين، ما هي هذه الدرجة؟ (فلمسوه بأيديهم)، هذه الآية فيها إعراض أشد بكثير عما ورد في سورة الحجر(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ () لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا) [الحجر: ١٤،١٥]

في سورة الحجر استعملوا حاسة البصر فقط، لو فتح الله لهم السماء وصعدوا ونظروا ورأوا، فسيقولون: لقد سكرت أبصارنا!!!

أما في سورة الأنعام يقول لهم: لو أنزلنا كتابًا في ماذا؟ في قرطاس فلمسوه بأيديهم، ماذا سيقول عن يده وماذا حدث لها؟ ...في سورة الحجر يعلق ضاحكًا على أنه سكرت أبصارنا، لكن هنا ماذا سيقول؟! (لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) [الأنعام:٧]

سيقولون: هذا سحر مبين... وهذا من شدة إجرامهم

ماذا يعني (سحر مبين)؟

معناه؛ من لا يعلم أن هذا سحر فهو غبي لا يفهم، فهو يضغط على الناس ضغط نفسي، فيقول: هذا واضح جدًا أنه سحر، فهو يريد أن يوصل للناس إنه موقن في الباطل لدرجة اليقين (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ).

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا) [الأنعام:٧]

ربنا يقول للنبي –صلى الله عليه وسلم– ليس الحل أن تنزل لهم آية مادية... لأن ربنا يقول: (وَلَوْ نَزَّلْنَا)، والله –عزَّ وجلَّ– يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون سبحانه وتعالى يعلم ذلك، فيقول: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) [الأنعام: ٧]

(وقالوا...) [الأنعام:٨]

لا نريد هذه الآية نريد آية أخرى، لكن طالب الحق لا يفعل هذا!!!.

مَثل هؤلاء كمثل بني إسرائيل مع البقرة، ومَثل قوم فرعون مع آيات سيدنا موسى، هي نفسية واحدة معرضة مكذبة مستهزئة، عندما تجد معرض أعلم أنه سيتبعه تكذيب واستهزاء.

عندما تجد شخص لم يستمع لآيات القرآن ولم يتدبرها، فكيف يكذّب بالقرآن ولم يقرأه على الأقل مئة مرة؟، كيف سيكذّب بالقرآن وهو لا يعلم ما الذي يُكذّب به؟ مثال ذلك أن تعطي لشخص ما هاتف محمول هدية، فيقول هذا هاتف رديء، لماذا تراه سيئا؟ فيقول: لأنه أبيض...تريدني أن أحمل هاتفا أبيضا؟!...على أي أساس قيمته ؟!

هو معرض؛ فينزل الله القرآن، فيقول: أنت لست برسول، فيرد الرسول: أن معي آيات الله، فيقول: أنت لست برسول لأن هناك ناس أغنى منك، فيرد الرسول: اقرأ القرآن، فيقول: لا أقرأه فأنت شخص فقير، يقول اقرأ القرآن يرد أريد مَلك، يقول اقرأ القرآن يرد أريد بابًا في السماء، يقول اقرأ القرآن يرد اخرج كنزًا في الأرض، يقول اقرأ القرآن، اسمع القرآن، لكنه معرض، فعندما تجد الإنسان معرض اعلم إنه سيصل لمرحلة التكذيب، ثم ماذا؟ الاستهزاء هذا أمر قطعي مادام أعرض سيكذب ومادام كذَّب

سيستهزئ، ولو عرضت عليه آية حسية سيستهزئ بها ويقول: هذا سحر مبين، طالما وصل لمرحلة الاستهزاء لن تنفع معه الآيات، الحل إنه يعود مرة أخرى لأول السورة، يرجع فيؤمن بوجود إله خالق وإلا لن يجدي معه شيء. .

بإذن الله الدرس القادم نبدأ من (وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ) [الأنعام:٨].فهي مرتبطة بما بعدها.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.